

رسالة التوحيد
محمد عبده

www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وبعد فلما كنت في بيروت من أعمال سورية أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة 1299 هجرية ودعيت في سنة 1303 إلى تدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتى على الغرض من إفادة التلامذة والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم فكانت آمالي مختلفة تتغير بتغير طبقاتهم أقربها إلى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى في أسلوب لا يصعب تناوله وإن لم يعهد تداوله تمهيد مقدمات وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد غير أن تلك الأمالي لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسى منها شيئاً وعرض بعد ذلك ما استقدمنى إلى مصر وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم حتى أتى النسيان على ما أملت وذهب عن خاطر جميع ما القيت إلى أن خطر لى من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسى ويصبو إليه عقلى وحسى وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شيء من علم التوحيد علماً منى أنه ركن العلم الشديد فذكرت سابق العمل وتعلق بمثله الأمل وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلى ما تلقاه بين يدى لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة إليه في إنشاء ما أرى التعويل عليه وذكرت ذلك لأخى فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الأولى

فطلبته وقرأته فإذا هو قريب مما أحب قد يحتاج إليه القاصر وربما لا يستغنى عنه المكاثر على اختصار فيه مقصود ووقوف عند حد من القول محدود قد سلك في العقائد مسلك السلف ولم يعب في سيره آراء الخلف وبعد عن الخلاف بين المذاهب بعد ممليه عن أعاصير المشاغب ولكن وجدت فيه إجازا في بعض المواضع ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض ما تمس الحاجة إليه وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه فبسطة بعض عباراته وحررت ما غمض من مقدماته وزدت ما أغفل وحذفت ما فضل وتوكلت على الله في نشره راجيا أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره أو يغض من قدره فما من أحد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان والله وحده ولى الأمر وهو المستعان

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم

أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلوب كان الغاية العظمى من بعثة النبي كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتى بيانه

وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلا لما يأتى بعدها وإما لأنه في بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما

هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ففي كل أمة كان القائلون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته

فكان جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير وإدهاش بالمعجزات أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية

جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبی بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل في حال النبی مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والألتقان على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما أدعاه ودعا إليه حتى أنه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر للخلق سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل فقال سنة الله التى خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وصرح إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب فقال ادفع بالتى هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل

وتقرر بين المسلمين كافة إلا من لاثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحى به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو عن الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل جاء القرآن يصف الله بصفات وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف

به في مخاطبات الأجيال السابقة فمن صفات البشر ما يشاركها في الإسم أو فى الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا إليه أمورا يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفى الاختيار الممنوح للإنسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكّل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة

فأعتبر حكم العقل مع ورود أمثال هذه المشابهات في النقل فسح مجالا للناظرين خصوصا ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبو وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم لبيتلوها بالبحث في مبانى عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد إليهما وقضى الأمر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا فى أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ويعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم التشبيه ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدام الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها وبقي القرآن قائما على صراطه إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور غير ما يحبون

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ يهودى أسلم وغلا في حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته فأخرج منها فذهب إلى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة فنفى منها فذهب إلى الشام فلم يجد فيها ما يريد فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته إلى أن كان ما كان مما ذكرناه ثم ظهر بمذهبه فى عهد على فنفاه إلى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الأحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة وأخذت الأحزاب في تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين وغلا خوارج فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا إلى أن اتضعض أمرهم بعد حروب أكلت كثيرا من المسلمين وانتشرت فأرثتهم في أطراف البلاد ولم يكفوا عن شعال الفتن وبقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد

غير أن شيئا من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتسائية عن مثار النزاع وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم والمصريين والإفريقيين ومن يليهم واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام وأن لهم أن يشتغلوا في اصول العقائد والأحكام بما هداهم إليه سير القرآن اشتغالا بحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر

ووجد من أهل الإخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم ومن أشهرهم الحسن البصرى فكان له مجلس للتعليم والإفادة في البصرة يجتمع إليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات بعدما هبت على الناس أعاصير الفتن واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء وبدت رءوس المشاقين تعلق بين المسلمين

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب اختلف فيها وأصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأى أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله الإرادى كأغصان الشجرة في حركاتها الأضرارية كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ولا يعنون برد الناس إلى أصل وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ما شاء سوى أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ما وصل إليه من الحديث وهو أول من جمع الحديث ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين بل امتد إلى إثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات غلوا في تأييد خطة القرآن أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى على ما سبق بيانه ثم غالى آخرون وهم الأقلون فمحوها بالمرّة وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عنادا للأولين وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الإسلامى

تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان ملاق بعقولهم ووطنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا إلى أوليات العقل وما كان سرايا في نظر الوهم فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق على أصل من أصول النظر ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لادين له وغير أولئك من الفرق الفارسية فأخذوا ينفثون من أفكارهم وبشيرةون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم فظهر الإلحاد وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه وبناء لم يتشامخ علوه وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادئ النظر في الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك

وحدث فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بطواهر الكتاب والسنة أو المتعطفين عن النطق بما فيه مجارة البدعة وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الإستمسك بظاهر الشرع والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة

الإتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم بالإسلام وأفرطوا في التأويل وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطأ عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الإسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياءهم كان أمر الخلاف بينهم جلا وكانت الأيام بينهم دولا ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر وارتاب في أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والإسفرايني وغيرهم وسموا رأيهم بمذهب أهل السنة والجماعة فانهمز من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الطواهر وقوة الغالين في الجرى خلف ما تزينه الخواطر ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو من قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية غير أن الناصرين لمذهب الأشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيهم عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي والإمام الرازي ومن أخذ مأخذهما فخالفوه في ذلك وقرروا أن دليلا واحدا

أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجز في الإستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استسكانه معقول وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا وكان الجمهور من أهل الدين يكتفهم بحمايته ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم وإفادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة في ضمائر الكون فما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله خلق لكم ما في الأرض جميعا إذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات في سبيلهم إلى ما هدوا إليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي إليه أمر السعادة والتميز بين الحق والباطل والضر والنافع وبعد ما صح من قوله عليه السلام أنتم أعلم بشئون دنياكم وبعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم الأول الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان خصوصا أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة في تقليدهما لباديء الأمر والثاني الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت وهو أشأم الأمرين زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين واصطدموا بعلمهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مبادئ الدين واشتدوا في نقده وبالغ المتأخرون منهم

في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الإعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس
ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامي من
سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما تراه
في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا
والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر فوق العلم عن التقدم
ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقى
من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الإسلامي فأنحرفت الطريق بسالكها ولم يعد
بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ أو تناظر في الأساليب على أن ذلك
في قليل من الكتب أختارها الضعف وفضلها القصور

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم
ظنوا في أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للإسلام قبل باحتماله غير
أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا فشردوا بالعقول عن
مواطنها وتحكموا في التضليل والتكفير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم
في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام
وهذا كفر وهذا إسلام والدين من وراء ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما يظنون وما
يصفون ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط
وكثرة الخلط شر عظيم وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين وكيف
عبثت به في نهاية الأمر أيدي المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده
والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد
العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء

ذلك فنزغات شياطين وشهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه في صوابه وخطله

الغاية من هذا العلم القيام بغرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هदानا إليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى وحق ما قال فإن التقليد كما يكون في الحق يأتى في الباطل وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي أما الواجب فهو ما كان يوجد لموجد وعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجود والاستحالة لغيره وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فإن المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن كان في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فإن العدم من لوازم ماهيته من حيث هي فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هي

عنها وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس
بموجود قطعا بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا إليه فهو ليس بموجود
لا في الخارج ولا في الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد إلا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب وذلك لأنه لا واحد من
الأمرين له لذاته فنسبتهما إلى ذاته على السواء فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان
أحد المتساويين على الآخر بلامر جح وهو محال بالبداهة

ومن أحكامه أنه إن وجد يكون حادثا لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب فإما أن يتقدم وجوده
على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والأول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه
الحاجة وهو إبطال لمعنى الحاجة وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدي إلى خلاف
المفروض والثاني كذلك وإلا لزم تساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه
أثر والثاني مؤثر ترجيحا بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل على أن عليه أحدهما ومعلولية
الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود
سببه فيكون مسبوقا بالعدم في مرتبة وجود السبب فيكون حادثا إذ الحادث ما سبق
وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي لأنه العدم سلب والسلب لا يحتاج إلى إيجاد
بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببا في بقائه أما في وجوده
فيحتاج إلى سبب وجودي ضرورة لأن العدم لا يكون مصدرا للوجود فالموجود إن حدث وإنما
يكون حدوثه بإيجاد وذلك كله بديهى

كما يحتاج الممكن إلى السبب في وجوده ابتداء يحتاج إليه في البقاء لما بينا أن ذات
الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم إلا للسبب

الخارجى الوجودى فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته فيكون في جميع أحواله محتاجا إلى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد ومعطى الوجود وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموحدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيء الممكن لقبول الإيجاد من موجدته وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه في الإبتداء ويستغنى عنه في البقاء وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود البناء فإنه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شىء وبين استفادته الوجود من شىء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الأولى فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الأحوال

الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا إلى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجىء في أحكام الواجب فهى ممكنة فالممكن موجود قطعاً

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود فجمله الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موحد لها فإما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ولنفسه فقط إن فرض أول وبطلانه ظاهر فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب إذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت أن للممكنات الموجودة موحدا واجب الوجود

وأيا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شىء من الماهيات الممكنة بمقتضى للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفى التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديما أزليا لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوفا بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا في وجوده إلى موحد غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبا وهو تناقض محال ومن أحكامه أن يطرأ عليه عدم إلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود إلى سلب الشىء عن نفسه وهو محال بالبداهة من أحكامه أن لا يكون مركبا إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من

أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا إلى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه وقد قلنا إنه لذاته من حيث هي ذاته ولأنه لا مزجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه نفى التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة في أحد الامتدادات الثلاث أي لا يكون له امتداد لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأول وصار إلى وجودات متعددة وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديها عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال في أي مراتبه كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وإن في النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له فمما يجب أن يكون له صفة الحياة وهى صفة تستتبع العلم والإرادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهى فى أى مراتبها مبدأ للظهور والاستقرار فى تلك المرتبة فهى كمال وجودى ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حى وإن باينت حياته الممكنات فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شىء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البدهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم في عالم الإمكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه وإلا تصور العقل علما اشمل وهو إنما يكون لوجود أكمل وهو محال ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر إلى شيء ما وراء ذاته فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم وإلا لم يكن علما من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شىء في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد في الأعيان كبيرها وصغيرها علوبها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج منه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبرة اعتبر بما تراه جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج إليه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما يلائمه فترى بزره الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واجد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق وهذه تتناول ما يغذى حلو المذاق وإرشاد الحساس منها

إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله إلى الأيدي والأرجل والأعين والمشام والأذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده وبقية من العوادي عليه وحاجته إلى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع هو الذى يعلم حالة الجرورة من الكلاب مثلا وأنها متى كبرت تلد أجزاء متعددة فيمنحها أطباء متكررة وغير ذلك مما لا يستطاع إحصاؤه وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وماصرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث هذا الصنيع الذى إنما تتفاضل العقول فى فهم أسرارها والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدقة أن يكون ينبوعا لهذا النظام وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيقتها كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود الإرادة وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مرید لأنه إنما يفعل على حسب علمه ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة

وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للإرادة إلا هذا أما ما يعرف من معنى الإرادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده وأن يرجع عنه فذلك محال فى جانب الواجب فإن هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهى من توابع النقص فى العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهى صفة بها الإيجاد والإعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته فلا ريب يكون قادرا بالبداهة لأن فعل العالم المرید فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان

الإختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الأختيار إذ لا معنى له إلا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا إرادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراع له لتوجه عليه النقد فىأتيه تنزها عن اللائمة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ولكن نظام الكون ومصلحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال فى الكون إنما هو تابع لكمال المكون وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع

أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون وهذا هو معنى قولهم إن أفعاله لا تعلل بالأعراض ولكنها تنزهه عن العبث ويستحيل أن تخلو من الحكم وإن خفى شىء من حكمتها عن أنظارنا

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب في ذاته خارجا وعقلا وأما الوحدة فى الصفة أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات فهى ثابتة لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والالم يتحصل معنى التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبدهة فيختلف العلم الإرادة باختلاف الذوات الواجبة إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها هذا التخالف ذاتى لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم

وإرادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة فيلزم أن يكون للشئ الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله

الصفات السمعية التى يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد إليه البرهان وجاءت الشريعة الإسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمدا ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدى إليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض انبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأننا من شؤونه قديما بقدمه أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ولا فى أنه خلق من خلقه وخصص بالاسناد إليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد إبلاغه لخلقه ولأنه صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا بحيث لا مدخل لوجود آخر بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجروء على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل إليه فإن الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء

القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتها وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر فى وجوده ما يمس شرف نسبه بل ذلك غاية ما دعا الدين إلى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبى وأصحابه وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذى فرق الأمة وأحدث فيها الأحداث خصوصا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة فى التأدب من بعضهم وإلا فيجل مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكفيه بصوته ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهى ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع وهى ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة

كلمات فى الصفات إجمالا

أبتدىء الكلام فيما أقصده بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناقشها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها أما الوصول إلى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهى إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره خذ أظهر الأشياء وأجلها كالضوء

قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شىء من الكائنات وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله إن كان سليما إنما هى تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتهان أضاعة الوقت وصرف للقوة إلى غير ما سيقى إليه

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه وهى نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر هل هى قبل الجسم أو بعده هل هى فى أو مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل إلى اثبات شىء منها يمكن الاتفاق عليه وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حتى له شعور وإرادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التى وصل إليها ببديته أماكنه شىء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الإنسانى مع ما يساويه فى الوجود أو ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود إلا على ماذا يكون اندهاشه بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى مالا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام وتخالف الأنظار فى الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف

أما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للأكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب فى ذاته وتناول إلى مالا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى فهو عبث ومهلكه عبث لأنه سعى إلى مالا يدرك ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط فى الاعتقاد لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها أما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبث فيه

فالذى يوجبه علينا الإيمان هو ان نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أزلى أبدى حى عالم مرید قادر متفرد فى وجوب وجوده وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه والاستدلال على شىء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغريب بالشرع لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يصل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ولا شىء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شىء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلاً فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الإشارة إليه

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحد حتى إذا التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعتة على ما بيده فاستحرق بينهم القتال ولا زالوا يتجادلون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقى وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا ولو وافتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبده وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض فقد بالغ قوم فى الإيجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علواً كبيراً وغلاً آخرون فى نفي التعليل عن أفعاله حتى خبل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلباً بيرم اليوم ما نقضه بالأمس ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله سبحانه ربك رب العزة عما يصفون

وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين جبرون الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والكذب فى أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتناذبون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع ولا يدري إلى أى غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحتفظ نظاما أو يدفع فسادا خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأى العمل لم يكن عبثا ولعبا ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مرادا لفاعله بالفعل وإلا لعدم النائم حكيمًا فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلا أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ويريدون من صونها عن البعث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها وإن كان هذا العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقلى ومنتهى الكمال فى العلم والحكم هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد صنع الله الذى أتقن كل شىء وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والأرض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره وما صانه عن الفساد الذى يفضى به إلى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التى نعرفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا لا يمكن القول بالثانى وإلا لكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة إن لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شىء واستحالة غيبه أثر من آثاره عن إرادته فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال فى وجوب تحقق ما وعد وأوعد به فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه وهو أصدق القائلين وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهيّات السابق إيرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته والأصل الذى يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب

قوله تعالى وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

وقوله لاتخذناه من لدنا أى لصدر عن ذاتنا المنفردة بالكمال المطلق الذى لا يشوبه نقص وهو محال وإن فى قوله إن كنا فاعلين نافية وهو نتيجة القياس السابق بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز فيسمى الحكمة غاية وغرضاً وعلّة

غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن إطلاق اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط فى ينزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا فى جانبه فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردتها ومركبها فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ورعاية المصلحة توهم أعمال النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص فى العلم والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل إلى نهايته وفيها ما فى سوابقها ولكن الله أكبر هل يصح ان تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سببا فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدل حتى ينتهى بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الإختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ثم يصدرها بقدره مافيه ويعد إنكار شىء من ذلك مساويا لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الآخري فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى إن كان سبب الإخفاق فى المسعى منازعة

منافس له فى مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبى لمناضلته وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله كأن هب ربح فأغرق بضاعته أو نزل صاعق فأحرق ماشيته أو علق أمله بمعين فمات أو بذى منصب فعزل يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وإرادته خشع وخضع ورد الأمر إليه فيما لقى ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله وقد عرف القوم شكر الله على نعمة فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئا منه قد أنكر مكان الإيمان من نفسه وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيته أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من أحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدل وقوفا حيث ابتدءوا وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الإشراف بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراف على ما جاء به الكتاب

والسنة فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن
لشئ من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى
الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش
والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها والاستعانة على السعادة
الأخرية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا هذا هو الشرك الذى كان
عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ورد الأمر فيما فوق القدرة
البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام
الأعمال البشرية الأول أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته والثانى أن
قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنقاذ ما يريده
وأن لا شئ سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه جاءت الشريعة
لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد
إحكام البصيرة فيه وتكليفه بأن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد
أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن
يذهب إلى غير ذلك وهذا الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما
عجبت له الأمم وعول عليه من متأخري أهل النظر إمام الحرمين الجوينى رحمه الله وإن
أنكر عليه بعض من لم يفهمه
أكرر القول بأن الإيمان بوحداية الله لا يقتضى من المكلف إلا اعتقاد أن الله صرفه فى قواه
فهو كاسب كإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها
وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما
لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته
أما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان كما بينا وإنا هو من شره
العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة
على مجاهدة المدارك إلى ما أطمأنت به نفوسهم

وتفشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ويخص به أهل الولاية والصفاء وكثير ماضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه وكذا الحال فى تميز الأشخاص فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الأنواع الإنسان ومن مميزاتة حتى يكون غير سائر الحيوانات ان يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاتة هذه ولو سلب شىء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والفرض أنه الإنسان فهبة الوجود له لاشىء فيها من القهر على العمل ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والإختيار فلا شىء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشىء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام فانكشف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزما ولا مانعا وإنما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يمنعنى عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الإيمان وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الإيضاح عنه والتيات قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا

قيده و لجوا فى مقاومته وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمنه فأكثرهم يعتقد فيستدل
وقلما نجد بينهم من يستدل ليعتقد فإن صاح بهم صائح من عماق سرائرهم ويل للخابط
ذلك قلب لسنة الله فى خلقه وتحريفلهدية وتحريف لهدية فى شرعه عرتهم هزة من
الجزع ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف وما أقمنا إلا على معروف ولا
حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الإختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا وما
تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضر صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به
عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا وذلك بديهى لا يحتاج إلى
دليل

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الأشياء والقبيح منها فان اختلفت مشارب
الرجال فى فهم جمال النساء أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد
فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد اوراق النباتات والأشجار خصوصا إذا كانت أوضاع الزهر على
أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ولا فى قبح الصورة الممثل
بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل
بهجة أو إعجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى
غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشموومات كما هو معروف لكل حساس
من بنى آدم بإحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء ولكن لا يخالفنا أحد فى أن
من خواص الإنسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا قامت الصناعات على
اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران فى أطواره

إلى الحد الذى نراه عليه الآن وإن اختلفت الأذواق ففى الأشياء جمال وقبح
هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح مالم به
العقل من الموجودات المعقولة وإن اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال فى المعقولات
كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه
وتبهر له بصائر لاحظية وللقص قبح لا تنكره المدارك العالية وإن اختلف أثر الشعور ببعض
أطواره فى الوجدان عن أثر الإحساس بالقبح فى المحسوسات وهل فى الناس من ينكر
قبح النقص فى العقل أو السقوط فى الهمة وضعف العزيمة ويكفى أن أرباب هذه النقائص
المعنوية يجاهدون فى إخفائها ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها
وقد يجمل القبح بجمال أثره ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به فالمر قبيح مستشبع ولذلك
الدميم المشوه أخلقه ينبو عنه النظر لكن أثر المر فى معالجة المرض وعدل الدميم فى
رعيته أو إحسانه إليك فى خاصة نفسك يغير من حالتك النفسة عند حضور صورته فإن
جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ومثل
ذلك يقال فى قبح الحلو إذا أضر واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأصر
هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الأفعال الاختيارية كما قال فى الموجودات الكونية مع أنها
نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بآثرها وتنفعل بما يلزم بها
منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها
فى ذلك حكم سائرها بالبداهة
فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق
كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألعاب المعروفة اليوم
وبالجمناستيك كإيقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العازف بها ومنها ما هو قبيح
فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع
وكولولة النائح ونقع المدعورين

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألماً مما لا يحصى عده وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقبة فى سلسلة الوجود اللهم إلا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع وما يقبح بما يجر إليه من الضر ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهانه وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أخط جهانه وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ ما يقبح لشئوم عاقبته كالإفراط فى تناول الطعام والشرب والإنقطاع إلى سماع الأغانى والجري فى أعقاب الشهوات فإن ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وإنما قبح اللذيذ فى هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى إلا بالموت على أسوأ حالاته ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس حاجاته فى أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسناً مقارعة الإنسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه فى الإحساس ومخاطرته حتى بحياته فى

سبيل ذلك كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحددها عقله ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدى ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها كل هذا عرفه العقل البشرى وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى الأول فعل الشر والثانى عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه فى هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها وإن كان المحددون لذلك والآخذون فيه يحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملئ ولا فيلسوف فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه فى جاهليته ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه

فهدم ورفع البنيان إلى الحد الموافق ووضع السقف على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم وهذا هو التمييز بين الضار والنافع فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدّها أشدّ حمقا من النمل سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فإذا وصل مستدل ببرهان إلى إثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل فى الإنسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وإنها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ما هو ضار لها بعده بإيقاعها فى الشقاء فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة وأن الرذائل وما يكون عنها محظورة وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الإعتقاد بمثل ما يعتقد وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الأمم كافة يضل القائل به فى رأيه لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلا وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة لاهتدى إلى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده وأسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ولا تختص معيشته بجو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته فى أي إقليم وعلى أي حال وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الأظفار

وهب الله الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان الذاكرة والمخيلة والمفكرة فالمذكرة تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر فنستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة فقد يذكر الشىء بشبهه وقد يذكره بضده كما هو بديهى والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ويهمز للنفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ إلى الفكر فى تدبير الوسيلة إليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ينظر مثلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاعت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سد حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالا مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضيه أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل

ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعتمد إلى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكة لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين فلقوة الذاكرة وضعفها وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخييل والفكر بل وفى الذكر

فالناس متفوقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ومتفوقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلماً فى الحال وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وإن عظمت لذته الحاضرة ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقى ضاراً فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة فليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن

يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي

ثم من أحوال الحياة الأخرى مالا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما ومن الأعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات كما يرى فى أعداد الركعات وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادته

لهذا كان العقل الإنسانى محتاجا فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بنى جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعد فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن إدراكه وذلك المعين هو النبى النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا

به غيرهم فى مقامات عرفانهم لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشىء مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والافتناع الذى هو عماد الطمأنينة فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التى نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وإنما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف أرباب متفرقون خير أم الواحد القهار يشير بذلك اشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى أما اعتقاد جميعهم بآله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفى ذلك نظام أخوتهم وهى قاعدة ساعاتهم وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمن فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الإنسان فى الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه فوجوب عمل من الأمور به أو الندب إليه وحظر عمل كراهته من المنهى عنه الذى على الوجه الذى حددته الشريعة وعلى أنه مئاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافى أيضا أن يكون الأمور به حسنا فى ذاته بمعنى أنه مما يؤدي إلى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره فى أحوال

المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المال أو العرض أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية وقد يكون من الأعمال الشرعية وقد يكون من الأعمال مالا يمكن درك حسنه ومن المنهيات مالا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح إلا النهى والله أعلم

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شىء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه مالا غنى له عنه كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووفاء وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود والكلام فى هذا البحث من وجهين الأول وهو أيسرهما على المتكلم وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفى مثالب الأفعال وخلائق ينهاهم عنها وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية وأن هذا الأمر الفائق لمعروف للبشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم فى أقوالهم وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه وعصمتهم

من كل ما يشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبوا عنه الابصار وتنفر منه الأذواق
السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة وأن أرواحهم ممدودة
من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية اما
فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون
وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ويمرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم
الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف فى الإيجاد
مما لم يقم دليل على استحالة بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن
الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد
الجوع على الإلتلاف فإن قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى قلنا إن واضح
الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات
غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده
على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن
يحدث الحادث على أى هيئة وتابعا لأى سبب إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك
المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة
لنبوة من ظهرت على يده لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها
عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فإن تأييد
الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتى ظهرت المعجزة وهى
مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا
تصديقا لمن ظهرت على يده وإن كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة
وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات فهى لا
تعلو عن تناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شىء

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس آخر أو مس عقولهم شىء من الضعف لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص اختصاصهم يوحىه والكشف لهم عن أسرار علمه ولو لم تسلم أبدانهم عن المنغرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى إنكار دعواهم ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم وكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثتهم والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولأله مدخل فى التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبى نهى عن تأبير النخل ثم أباحه لظهور أثره فى الإثمار وإنما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محمية وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمهما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذه عليه وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً لعمارة الأرض ببنى آدم كأن النهى والأكل رمزاً إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنسانى فى الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب إليه الجمهور

حاجة البشر إلى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهمل الكلام عليه من الوجه الأول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل والكلام فى هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة إليهم وهو معترك الأفهام ومزلة الإقدام ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام لسنا بصدد الاتيان بما قال الأولون ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون ولكننا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد والذهاب

إليه من أقرب الطرق من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق اللهم
إلا إشارة من طرف خفى أو إلماعا لا يستغنى عنه القول الجلى
وللكلام فى بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان الأول وقد سبق الإشارة إليه يبتدىء من
الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها
بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان
بأعمال المرء فى حياته الفانية سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد
والارادات أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات
اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليون وفلاسفة إلا قليلا لا يقام لهم وزن على أن
نفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وإنما الموت المحتوم
هو ضرب من البطون والخفاء وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه
النفس فيه وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ فى اجساد
البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى
مراتب الكمال ومنهم من قال إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة
لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ألطف من هذه
الأجسام المرئية وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الآخرويين وفيما هو
متاع الحياة الآخرة وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء
الأمم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه
هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها
وحشيتها ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة
وهمية وإنما هو الإلهامات التى اختص بها هذا النوع فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره
هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا وإن شذ أفراد

منه ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ولا للفكر أن يصل إلى مجهول بل قالوا أن لا وجود للعالم إلا فى اختراع الخيال وإنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهياة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء ونزوات الأمراض على الأجساد ومصارعة الأجواء والحاجات وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عدو لا تنتهى عند حد إلهام يسلفنها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجراف فما كان استعداده لقبول مالا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات

شعور بهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدى وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم بل لزمنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد وقضاء الأزمنة والأعصار فى تقويم الأنظار وتعديل الأفكار وإصلاح الوجدان وتثقيف الأذهان ولا تزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندري متى نخلص منه وفى شوق إلى طمأنينة لا تعلم متى تنتهى إليها

هذا شأننا فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها والشؤون التى لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤون هل فى اساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال وذلك الكون مجهول لديك وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة إليك كلا فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ولا اشتراك بينهما إلا فيك أنت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية

أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم الذى خلق الإنسان وعلمه البيان علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعدلها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون على الغيب بإذنه ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين نهاية الشاهد وبداية الغائب فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقد العباد فيه وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الآخوية وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن

مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهره وباطنه ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على كل حى بما إليه حاجته ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط فى أهم حياته والضلال فى أفضل حاله

يقول قائل ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج إليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية فى الحياة الآخرة وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الإنسانى ذلك النوع على ما به وما دخل فى تقديم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض

المسلك الثانى فى بيان الحاجة إلى الرسالة يأخذ من طبيعة الإنسان نفسه أرتنا الأيام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع إلى بعض الغايات أو إلى رؤوس الجبال ويستأنس إلى الوحش ويعيش عيش الأوابد من الحيوان يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ويأوى إلى الكهوف والمغاور ويتقى بعض العوادي عليه بالصخور والأشجار ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ولا يزال كذلك حتى

مع ما قدر لنوعها وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التي غرز في طبيعتها أن تعيش مجتمعة وإن تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه وللمجموع من العمل مالا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه وأودع في كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجته إلى سائر أفراد الجماعة التي يشملها إسم واحد وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك فلا حاجة إلى الإطالة في بيانه وكفاك من الدليل على أن الأنسان لا يعيش إلا في جملة ما وهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه وكما كثرت مطالب الشخص فى معيشتة ازدادت به الحاجة إلى الأيدي العاملة فتمتد الحاجة وعلى أثرها الصلة من الأهل إلى العشيرة ثم إلى الأمة وإلى النوع بأسره وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة النابعة للحاجة قد تعم النوع كاملا يخفى هذه الحاجة خصوصا فى الأمة التى حققت عنوانها لها صلات وعلائق ميزتها عن سواها حاجة فى البقاء حاجة فى التمتع بمزايا الحياة حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفرادها عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الأمم وروحا لبقائها وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب أو ما تحب فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها فى الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمراً فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه فإذا عرض التبادل والتعارض ولو حظ فى العلاقة بينهما تحولت المحبة إلى رغبة فى الانتفاع بالعرض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الإحسان إليه فى سداد عوزه فصورة شبعه وربيه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدانها بفقدته فيحرص عليه حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر ما عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضاً واندفع إلى خلاصة بما تمكنه القوة

ذلك لأن الإلهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب فحاجته فى سد عوزه هى حاجته إلى القائم بأمره فيحبه محبته لنفسه ولا يبغض منها شوب التعارض فى الخدمة أما الإنسان وما أدراك ما هو فليس أمره على ذلك ليس ممن يلهم ولا يتعلم ولا ممن يشعر ولا يتفكر بل كان كماله النوعى فى إطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمته بتصارعه بعوامله وهى غير محصورة حتى يعتصر منه منافع وهى غير محدودة وإيداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل إليه لذة وبجوار كل لذة ألم ومخافة فلا تنتهى رغائبه إلى غاية ولا تقف مخاوفه عند نهاية إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً تفاوتت

أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل وفى الهمة والعزم فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً المتناول فى الرغبة شهوة وطمعاً يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ليتمتع وإن لم ينفع ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبتة ولا يبالي بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه فكلمة حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ فتح له الفكر باباً من الحيلة أو هياً له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجادل أفراده طمعا فى وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية كلا ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية وكان من أعظم همهم أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد إليه نظره وقد بلغت هذه الشهوة حد من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لا تصعد إليه سائر اللذات وهى من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم لو صرفت فيما سيقى لأجل ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا إليها من التفاوت فى مراتب الإدراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته فى القلوب بإخافة الأمن وإزعاج الساكن وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضاً فى الأعمال أولاً تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سبباً فى تفانيهم لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال فلا بد للنوع الإنسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة إلى العدل ووطنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة أن العدل نائب المحبة نعم لا يخلو القول من حكمة ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها قبل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينبع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف فيعرفون لكل حق حرمة ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يحب اجتنابه وإلى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغابته وهو ما يجب الأخذ به ومنهم من أنفق فى الدعوة إلى رايه نفسه وماله وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ولكن هل سمع فى سيرة الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب وهل كفى فى إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوههم إليه وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء كلا لم يعرف ذلك فى تاريخ الإنسان ولا هو مما ينطبق على سنته فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الأصول ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ويفقد ما قصد بوضعها

أضف إلى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو ألقى بالغريزة البشرية واشد لزوما لها كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته يجد نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه قد لا تعرفها معرفة العارفين ولا تنطرف إليها إرادة المختارين تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسنها تارة ومن عقلها أخرى ولا سبيل لها إلا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر فمنهم من ناولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع فجعل لكل نوع إليها ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخيط فيه ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فىبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعا انفق الناس فى الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافا كان اشد أثرا فى التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضرار لغلبة الشهوات عليهم إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الإلهام الهادى إلى ما يلزم لذلك وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ولم يفيض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وإنما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الأفكار فى مجاريها وترمى

به إلى حيث يدري ولا يدري وفى كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده أفهل
منى هذا النوع بالنقص ورزء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل
الوجود نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه
الإنسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ويطاول بفكره أرفع
معالم الجبروت ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ثم يصغر
ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مالم يعرف سببه
ولم يدرك منشأه ذلك لسر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين من ذلك
الضعف قيد إلى هداه ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته أكمل الواهب الجواد
لجملته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفراده وكما
جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة
والتوقى من الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وأثر فى الوقاية
من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجتماع من عليه بالنائب
الحقيقى عن المحبة بل الراجع بها إلى النفوس التى أفقرت منها لم يخالف سننه فيه من
بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهى
جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين وميزهم من بينها
بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة فى الإقناع بآيات باهرات
تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح وبذل الجامع وبصطدم
بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه يطرقون القلوب
بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بمالا مندوحة عن
الأذعان له ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصلوك
والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الازدعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى
النظرى يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم

ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الأنبياء والمرسلين فبعثه الأنبياء صلوات الله عليهم من متمات كون الإنسان ومن أهم حاجاته فى بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله لكىلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحي

الكلام فى إمكان الوحي يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه وليعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعيننا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه يقال وحيث إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقىته إلى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله وقيل الوحي إعلام فى خفاء ويطلق ويراد به الموحى وقد عرفوه شرعا أنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يحده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور أما إمكان حصول هذا النوع هزة العرفان الوحي وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم نعم يوجد فى كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم إلى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم الرب فيما هو من تناولها كما سبقت الإشارة إليه فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسبون العقل وشئونه

وسره ومكنونه ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهى بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام ما يليق وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق كما هو حال غير الإنسان من الحيوان فإذا عرض عليهم شىء من الكلام فى النبوات والأديان وهم من أنفسهم هام بالإصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر وانصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا لذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إن شاء الله

قلت أى استحالة فى الوحي وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومناجى النظر متى خفت العناية من ميزته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالا يحصره العدد وإن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى إليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع والظاهر الذى لا يجاحد فإذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة إلى اليوم

فإذا سلم ولا محبص عن التسليم بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من

محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعضى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم وأن يكون ذلك سنة لله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفى للإجتماع بما يضطر إليه من مصلحته إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشده وتكون الأعلام التى نصبها لهديته إلى سعادته كافية فى إرشاده فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا

أما وجود بعض الأرواح العالية وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتغال الوجود على ماهر أطف من المادة وإن غيب عنا فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الإلهي وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله إنه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا فى النفس وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بمالا يوجد فى مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم

لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشؤن المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم وأن ضعف العزائم والعقول بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل أما أرياب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الأئس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس لهم مشاركة فى بعض أحوالهم على شىء فى عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لا يستعبدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع انبيائهم وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤواهم إلا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدتهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبتوا به وبوقوعه إلا حجاب من العادة وكثيرا ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالإخبار بوجود مكة أو بأن للصين عاصمة تسمى بكين وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك إلى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعبادة بهم لتعليمهم علم ما ادعوا إليه وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأذنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الأنظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول والباطل لابقاء له إلا فى الغفلة عنه كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة

ينبت باهمالها وينموا باغفالها فإذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الذكاء ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الإنسانى ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبيين فلا يمكن أن يكون اسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون أما بقية الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد باب على حدته إن شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة عن نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل مالمس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إبداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين أما تفصيل طرق المعيشة والحدق فى وجوه الكسب وتناول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه النطة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيفا منصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه أن لا ينال شىء من تلك الأعمال السابقة أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شريعته يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان

إليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات تذكرة لمن ينسى وتركية مستمرة لمن يخشى تقوى ما ضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعت مصالحتهم ولذاتهم فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة يعودون بالناس إلى الألفة ويكشفون لهم سر المحبة ويستلغتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ويشعروها أفندتهم يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه وأن لا يتجاوز فى الطلب حده وأن يعين قلوبهم ضعيفهم ويمد غنيهم فقيرهم ويهدى راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذى تهذر له وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله واحترام الأعراض مع بيان يباح وما يحرم من الابضاع ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الاقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون ببيانهم بنبا الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظيره

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه
لم يشق عليه الاعتراف بوجوده
بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر أو إرضاء لمن
بيده الأمر وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى لا يزال العقلاء يجهدون
أنفسهم فى حله إلى اليوم
ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات فليس مما جاءوا له
تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما
استسكن من طبقات الأرض ولا مقادير الطول فيها والعرض ولا ما تحتاج إليه النباتات فى
نموها ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها أو أنواعها وغير ذلك مما وضعت له
العلوم وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل
طرق الراحة هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك يزيد فى سعادة المحصلين
ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة لله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى
الكمال وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه
بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء
أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة
الأرض فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعة أو توجيه الفكر إلى
الغوص لإدراك اسراره وبدائعه ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لا يجوز
أن تكون فوق ما يفهمون وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم ولهذا قد يأتى التعبير الذى
سبق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه إلى الخاصة
يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم
على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد
للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان بل يجب أن يكون

الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين

اعتراض مشهود

قال قائل إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون يتناهبون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر إلا مجىء النوبة حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ويثور بينهم غبار الشر وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم إلى أن يغلب قلوبهم ضعيفهم فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين بها هو الدين الذى تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا فى الشقاق ومضرما للضعينة فما هذه الدعوى وما هذا الأثر

نقول فى جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعذر من الأنبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أولا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم وإلا فقل لنا أى نبي لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم ولم يكن دينه وإفيا بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها فى أفرادها وجملتها أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس بل الكل إلا قليلا

لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى إصلاح العمل فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ثم أنصب نفسك واعظاً بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها فأى الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتهم وردها إلى الاعتدال فى رغائبها من البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان مضر الإسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر وإنما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطلقة على سر القهر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه المحيط بما فى نفسه الآخذ بأزمة هممه وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب إلى فهمه ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقام وسخطة عليه إذا تقحم عند ذلك يخشع منه القلب وتدمع العين ويستخذى الغضب وتخدم الشهوة والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأولياءه إذا أطاع ويسخطهم إذا عصى ذلك هو المشهود من حال البشر غابره وحاضرهم ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم كم سمعنا أن عيونا بكت وزفرات سعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين ولكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصح الأدب وزعماء السياسة متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضر ومهالك هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للأمرين إلا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم قلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة

العلم المنصوب على الطريق المسلوك بل نصح إلى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبیح من المناظر وبين الطريق السهلة والسلوك والمعابر الوعرة ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج وعناد وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شىء ويعلم ذلك الباغى فى رايه من أهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء فالدين هاد والنقص يعرض لمن دعوا إلى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم إليه يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ألا إن الدين مستقر السكينة ولجأ الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة وإلى من دونه فى المال والجاه اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية الدين قوة من أعظم قوى البشر وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به إلى أصوله الطاهرة الأولى ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع إليه قوته وتظهر للأعمى حكمته

ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرّة فى قضايا الدين وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق

على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام فنقول لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتهه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها إلى معرفتها وأنها آتية من قبل الله وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنهه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد فإن ذلك مما تنتزه النبوات عن أن تأتى به فإن جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شيء ما الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه وفى التفويض إلى الله فى علمه وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى

رسالة محمد

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلما بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفف من أبصارهم المعقودة بعنان السماء إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما عشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول وصيحة فصحي تزعج الغافلين وترجع بالباب الداهلين وتنبه المرءوسين

إلى أنهم ليسو بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة الغارين وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التى سنها الله له إنا هديناه السبيل ليبلغ بسلوكها كماله ويصل على نهجها إلى ما أعد فى الدارين له ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما أتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف كانت دولتا العالم دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجادل مستمر دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الأحن حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفة والتفنن فى الملاذ بالغة حد مالا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الأتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتياى لسلب الغافل وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشياح اللاعب يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ففقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم كما هو الشأن فى العجاومات مع من يقتنيها ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقى لها من قوة الفكر أردا بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى الذى يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول فتتهدى العامة إلى السبيل ويثور الجم الغفير على العدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام وبهيتوا كسفا من الأباطيل والخرافات ليقذفوا بها فى عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور

الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل
وعدو كل ما يثمره النظر إلى أكان تفسيراً لكتاب مقدس وكان لهم فى المشارب الوثنية
ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفذ هذه حالة الأقباط كانت فى معارفهم وذلك كان شأنهم فى
معايشهم عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء اللهم إلا بعض شوارب من بقايا الحكمة
الماضية والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغاير
ثارت الشبهات على اصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع فكان
يرى الدنس فى مظنة الطهارة والشهرة حيث تنتظر القناعة والدعارة حيث ترجى السلامة
والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو
الدين فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل
والشريعة معا وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة وكان ذلك وبلا عليها
فوق ما رزئت به من سائر الخطوب
وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات خاضعة للشهوات فخر كل قبيلة فى قتال
أختها وسفك دماء أبطالها وسبى نساءها وسلب أموالها تسوقها المطامع إلى المعامع
ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم
من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعف الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم
تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه
للعفاف قيمة وبالجملة فكانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة
وانفصمت عراها عند كل طائفة
أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقباط أن يؤديهم برجل منهم يوحى إليه رسالته ويمنحه
عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى أظلت رءوس جميع
الأمم نعم كان ذلك ولله الأمر من قبل ومن بعد
وفى الليلة الثانية عشر من ربيع الأول عام الفيل 20 ابريل سنة 571 من ميلاد المسيح
عليه السلام ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى

بمكة ولد يتيما توفى والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية وبروى أقل من ذلك وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالتة توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريما غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقيم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الأوهام وأقرباء من حفدة الأصنام غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأميين أدب إلهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام فاكتهل والقوم ناقصون رفيعا والناس منحطون موحدا وهم وثنيون سلما وهم شاغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما إن كان من ذوى قرابته وأهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا استأذ ينبهه ولا عضد إذا عزم يؤيده فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الأمر لم يجر على سننه بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره فعالجته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة وما جاء فى الكتاب من قوله ووجدك ضالا فهدى لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله إن ذلك لهو الإفك المبين وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين وإرشاد الضالين وقد هدى الله نبيه

إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته
وجد شيئاً من المال يسد حاجته وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته بما عمل
لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجها لها وكان فيما يجتنيه من
ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعظم قومه لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره
زخارفها ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها بل
كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع
إلى الفكر والمراقبة والتحنن بمناجاة الله تعالى والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه
الأعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذى تولاه إلى أن أنفتق له الحجاب عن
عالم كان يحته إليه الإلهام الإلهى وتجلى عليه النور القدسى وهبط عليه الوحي من
المقام العلى فى تفصيل ليس هذا موضعه
لم يكن من آباءه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن
طلب مناصب السلطان وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان دل عليهما ما
فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم جاء الحبشى لينتقم من
العرب بهدم معبدهم العام وبيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم
ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومههم وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من
الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك
فاستدناه وسأله حاجته فقال هى أن ترد إلى مائتى بعير أصبتها إلى فلامه الملك على
المطلب الحقير وقت الخطب الخطير فأجابه أنا رب الأبل أما البيت فله رب يحميه هذا غاية
ما ينتهى إليه الإستسلام وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش فأين من تلك
المكانة محمد حالة من الفقر ومقامه فى الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكا أو
يطلب سلطانا لا مال لا جاه لا جند لا أعوان لا سليقة فى الشعر لا براعة فى الكتاب لا
شهرة فى الخطاب

لا شىء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ما الذى أعلى رأسه على الرؤوس ما الذى سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم وكفالتهم لهم كشف الغمم بل وإحياء الرمم ما كان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية ينصره فى عمله ويمده فى الانتهاء إلى أملة قبل بلوغ أجله ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ويكفيه مؤنة الدليل ما هو إلا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندي أرايت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة إلى التوحيد والاعتقاد بالعلی المجید والکل ما بین وثنية متفرقة ودهرية وزندقة نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم وفى الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان ورد كل شىء فى الوجود إليه أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى مضاف العامة فى الاستكانة إلى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكنات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية والاشترار مع كل ذى نفس إنسانية فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة إليه لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة وخز بوعظه عبید العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل وقطعتهم دون الأمل مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية فبكت الواقفين عند حروفها بغاوتهم وشدت النكير على المحرفين لها الصارفين لألفاظها إلى غير

ما قصد من وحيها اتباعا لشهواتهم ودعاهم إلى فهمها والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم واستغلت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ودعا الناس أجمعين ذكورا وإناثا عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هو معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليس في الاعتقاد بوجوده وقرّر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك من عالمين متخلفين وإن كانا ممتزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول ولا قوة له كل هذا كان منه والناس أحياء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمى مثله لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه عادل فى أمره ونهيه أو أب حكيم فى تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رءوف بهم فى شدته رحيم فى سلطته ما هذه القوة فى ذلك الضعف ما هذا السلطان فى مظنة العجز ما هذا العلم فى تلك الأمية ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية إن هو إلا خطاب الجبروت الأعلى قارعة القدرة العظمة نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شىء الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريئا من التهمة لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه أى برهان على النبوة أعظم من هذا أمى قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليفة والنظر فى سننه البديعة أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ما هذا الخطاب المفحم ما ذلك الدليل الملجم أقول ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم لالا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه نبى صدق الأنبياء ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تطرق إليه الريبة أن النبى فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رامهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا فى أحكامهم وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة فى إهمالها والإنحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواظ وأداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة وأنه المممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول وتغانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى والتماسهم الوسائل قريبا وبعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه فى الإخبار

عن الله وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوآته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعتة وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته وانهاأوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ويسفه أعلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به لبيطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ولجاج القوم فى التعدى أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى صلوات الله عليه

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر فى قوله غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين وكالوعد الصريح فى قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتو بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع

أرجائها ومع أنه لم يسبق له فى نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرى عادة عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه

يقول وإهم إن العجز حجة على من عجز فإن العجزهى حجة الإفحام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمنا من البيان إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية لأنه جاء بلسان عربى وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم فى العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن

يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة
فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدا رسول الله إلى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك
بقى علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامى وما دعا إليه على وجه الإجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر فى كون النبى المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الإسلام أو الدين الإسلامى

هو الدين الذى جاء به محمد من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وإنى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سئدى فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمه وهدى الراشدين
جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعة من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وما ورد من ألفاظ الوجه اليبدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شىء منها وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها

أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال على سنة له فى ذلك سنّها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبدل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا إلا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما صرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقتصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدّها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها وكان لا بد من الخضوع له والرجوع إليه والاستعانة به فذلك إنما يرد إلى الله وحده فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصور والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن

الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم وارتفع شأن الإنسان وسمعت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين وكما أمر رسول الله أن يقول إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين

تجلت بذلك للإنسان نفسه حره كريمه وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هى كارادة الرؤساء والمسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنه والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العيد فيما بينه وبين الله الزاعمين وأنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين صار الإنسان بالتوحيد عبد الله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا على فى الحق ولا وضع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال

ذرة شرا يره وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره إلى غيره وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم إلا حقا محترما ما تصطمم به أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومه طال عليه الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة علا صوت الإسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وإنما المعلمون منبهون ومرشدون إلى طرق البحث ما دون صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوصفهم بالتميز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرن وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبا يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الآباء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا العقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل لللاحق من علم آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافة وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور

العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما افترفه سلفهم قل
سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين وإن أبواب فضل الله لم تغلق دون
طالب ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب عاب أرباب الأديان فى افتنائهم
أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا
إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان
قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده وردة إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع
الخشوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية
للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال
الإرادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما
هياه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم إن
نشأة المدينة فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم
تتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقا فى تصريف
اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل
السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب
الإسلام ومعارف المحققين من أهله من تلك الأزمان
رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين
فى فهم الكتب السماوية استثار من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على
كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على
العامّة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن
يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى

إليه ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم إلا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبدا بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين أما الأمانى ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا أما الذين قال إنهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانهبى النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالذعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب لفقهِه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال

على الجمهور الأعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزينة وقت من الأوقات

جاء الإسلام والناس شيع في الدين وإن كانوا إلا قليلا في جانب عن اليقين يتناذبون ويتلاعبون ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب أنكر الإسلام ذلك كله وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد قال الله إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون وكثير من ذلك يطول إيراده في هذه الوريقات والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاققة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول إلى فهمه منه والعزائم إلى العمل به وأن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف وإن اللجاج والمرء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت

حكيمته ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشرية ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها وسار الكافة فى مرآشدهم إخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته هو رب العالمين بالتدرج فى تربية الأشخاص من خارج بطن أمه لا يعلم شيئا إلى راشد فى عقله كامل فى نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضرب هديه فى تربية الأمم فلم يكن من شأن الإنسان فى جملمته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه إلى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملمته فى النمو قائما على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفرادها وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها وإن اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولة للناشىء الحديث العهد بالوجود لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسها ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرة أو ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقي إليه فيما يصله بغيره اللهم إلا يدا تصل إلى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان أو يرقى إليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن نسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتية إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو يبصره فأخذتهم بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى

جلى الغاية وإن لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم إلى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت وارتفعت وانحطت وجريت وكسبت وتخالفت واتفقت وذوقت من الأيام آلاما وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وایاما ووجدت الأنفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الأهواء ويحدث خطرات القلوب فتشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ويخلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم إليه فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله وضاعت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل هذا كان شأنهم فى السجایا والأعمال نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما فى العقائد فتفرقوا شيعا وأحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفى غيره من دقائق الأكوان والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذهاب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس إلى نزعة

كانت أشام النزعات على العالم الإنسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين فتقوض الأصل وتخرمت العلاقات بين الأهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالإنسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده ف جاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع بعض العواطف والإحساس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ومشيبته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح وأن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الأمرين طهرا مطلوبا وجعل روح العبادة والإخلاص وأن ما فرض من الأهمال إنما هو لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين ورفع الغنى الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الإنسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت إلى أهل العناد فقال لهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من اصول اليقين ونص على أن التفرق بغير خروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى

فى العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هي أحسن ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الألفة والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والإرتباط بينهما بروابط الائتلاف وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجيه وهى على غير دينه قال تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل إكراه فى الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هي أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الإسلام فإن نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير على كل واحد منكم بنفسه لا عليكم أنفسكم كما هو ظاهر لكل عربى كل ذلك ليرشد إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم إلى الخير فى جميع نواحيه

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الإسلام على ما فى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها

تصدر عن ذلك الشعور بالسطان الإلهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستحذى له النفوس وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفرادها ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصلوك والأمير ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان متجردين عن آثار الصنعة وحدث بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل الله اكبر أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير العالم والكون الصغير والإنسان فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزائية غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم والمصائب

قربة أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجؤوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسلى الفكر والذكر والصبر والشكر إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة على هذه السنن جرى سلف الأمة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ثم فرض ذلك فى قوله ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين وتحقق به كلمة العذاب على

المختلفين والمقصرين أبرز حال الأمارين بالمعروف النهائيين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان فى هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيها على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ثم شد بالإنكار على قوم اغفلوها وأهل دين أهملوها فقال لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون فقدف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الأولين سدا لحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريرا لرقاب المستعبدين وتيسير الأبناء السبيل ولم يحث على شىء حنه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الإيمان ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم

أغلق الإسلام بأبى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه

لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحيها ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها

فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به من صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها فى سبل السعى ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغى ولم يبق إلا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتین لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة بزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر هكذا يصدق نبا الغيب ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما

انتشار الإسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقي حق من باطل أوذى الداعى الإيذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرّموا الرزق وطرّدوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك

الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفوس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناخرهم جرى الدم الفاسد من المقصود على أيدى الأطباء الحاذقين ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فى جهنم أولئك هم الخاسرون تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء والفقير للأغنياء ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل والرشد فى ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخرى كانت تدعو إليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبي قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزءوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المناجر فبعث إليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الأئمة من صحابته طلبا للأمن وإبلاغا للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقدهم يحملون الحق على أيديهم وانهاؤا به على تلك الأمم فى قوتهم ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحو لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منهم أهلهم وأموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها يلجون على الناس

بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفا رفع الإسلام ما ثقل من الأتاوات ورد الأموال المسلوقة إلى أربابها وانتزع الحقوق من معتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدي قاض شرعى بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثر من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوروبا فرارا منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئا من القوة وما كان من الجزية لم يكون مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم

ظهور الإسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على

الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل ربنا وبعث فيهم رسولا منهم وإن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفا ورحمة وخيرا ونعمة لا عقيدة بنفر منها العقل وهو رائد الإيمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العلم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فإذا نزلت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرءوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حاملية اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول إلى علمه فتراموا إليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها وتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها والمبادرة إلى رغبتها كانت الشعوب تثن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأذنين متى عرضت دونها شهوات الأعلى فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لأمرء فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بينها إليها مع لوم الأمير على ما كان

منه عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذى حبه إلى من كانوا أعداءه ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه غلب على المسلمين فى كل زمن روح الإسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يجرهم الجار فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ثم يرتحل فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما الفتة من اللين والмиاسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الإسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الإسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى إفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذبعائده على بصيرة فيما تنزع إليه لا سيف وراءها ولا داعى أمامها وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامى وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجملة لأن فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها وأدعى إلى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً وإلى العقول مخلصاً ويدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه هذا كان حال الإسلام فى سذاجته الأولى وطهارته التى أنشأها الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم قال من لم يفهم ما قدمناه أولم يرد أن يفهمه إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى يعرضون القرآن على المغلوب فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته سبحانه هذا بهتان عظيم ما قدمناه من معاملة المسلمين مع

من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الأخبار تواترا صحيحا لا يقبل الريبة فى جملته
وان وقع اختلاف فى تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا
للعديان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع
غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالإسلام وكانت الحاجة لصلاح
العقل والعمل داعية الانتقال إليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والإلزام به مهيدا كل أمة
لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة
أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة
واستمر فى شدته بعد مجيء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم
يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن هذا ولم يكن
السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت
حمايته مع غيره نفيض من الأفتدة وفصاحة تتدفق عن الألسنة وأموال تخب ألباب
المستضعفين إن فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن
المدينة فاض حتى شملها فجمع شملها فأحيها حياة شعبية مليه علامده حتى استغرق
ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلوا أهل الأرض بمدنيتها زلزل هديره على
لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان لا يخلو من
غلب بالتحريك قليلا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد
والغى قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه إذا ساق الله ربيعا إلى أرض
جدبة ليحيى ميئتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها أفينقص من قدره أن اتى فى طريقه
على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به

سطح الإسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن
يسمعوا كلام الله ويفقهوه واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا

عن طريق الدين أزمانا فوق وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ما وراءه لكن الله بالغ أمره فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخار وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام دينا وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها لم جاءوا وبماذا رجعوا ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم لبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء جم غير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدره بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلمنا وشرعا وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادي عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا إلى ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء

الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سداجته وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه إسما ولا يختلف معنى إلا فى صورة العبادة لا غير ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنيها على مثل ما دعا إليه الإسلام غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة هذا ظل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شقاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباءوا بوضوح شأنهم وضععة سلطانهم وما بيناه فى شأن الإسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم وإلى الله عاقبة الأمور

إيراد سهل الأيراد

يقول قائلون إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الإتفاق وقال فى كتابه إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب إذا كان الإسلام موحدا فما بال المسلمين عدوا إذا كان موليا وجه العبد وجهة الذي خلق السموات والأرض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا وكادوا يعدون ذلك فضلا من فصول الوحيد إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان

وأطلق له العنان يجول فى ضمائرنا بما يسمعه الإمكان ولم يشترط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها لا يجدونها ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم إليه فتركوه إذا كان الإسلام فى قلبه من العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراءة القرآن لا يقرءونه إلا تغنيا ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنيا

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال فما بالهم شذوهما إلى أغلال أي أغلال إذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم إذا كان الدين فى تشوف إلى حرية الأرقاء فما بالهم قضا قرونا فى استعباد الأحرار إذا كان الإسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعدهم على الغش بأن الغاش ليس من أهله فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه إذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم وإن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وأنهم إن لم يأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذا وصاروا فى أعمالهم أفرادا لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمه معه صلة ولم تضمه

إليه وشيخة ما بال الأبناء يقتلون الآباء وما بال البنات يعقفن الأمهات أين وشائج الرحمة
أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء وقد اصبح
الأغنياء يسلبون ما بقى فى ايدى أهل البأساء
قبس من الإسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله
فى ظلمات لا يبصرون أصبح هذا فى عقل أو عهد فى نقل ألم تر إلى الذين تذوقوا من
العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات
وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم
أحرار الأفكار وبعداء الأنظار وإلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ووسموا
أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها
ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر
منكرا وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق
يستحى أن يظهر به بين الناس ومن غرته نفسه بأنه على شىء من الدين وأنه
مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته
والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ما جاء فى
الإيراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل
البصر فى الدين ما كان عليه مسلمون زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن
قد أتيت فى خاصة الدين الإسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق
فى فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفى فى
الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الإسلام
ومنصفو سائر الأمم فذلك هو الإسلام وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن فى

استعماله والآخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه وقد جرب علاج الاجتماع الإنسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الأعمى إنكارا ولا الأعمى إعراضا وغاية ما قيل فى الإيراد أن أعطى الطبيب إلى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله كلامنا اليوم فى الدين الإسلامى وحاله على ما بيناه أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم كتاب آخر إن شاء الله

التصديق بما جاء به محمد

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وأنه إنما يخبر عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به ونعنى بما جاء به ما صرح به الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطئهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة وعذاب فى نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى يظن وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المنواز وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة

أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو

ليس من المتواتر فلا يطعن فى إيمانه عدم التصديق به والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئاً وهو يعلم أن النبى حدث به أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى عليه فى ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة فى التكليف كان مؤمناً حقاً وإن كان لا يصلح اتخاذه قدوة فى تأويله فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسوله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء به على ألسنة الرسل بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه الأولى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة والأخرى جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء من الأولياء والصديقين أما الأولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون إلا يبصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا وهو مالا يمكننا معرفته وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافاً يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع إلى قول خصومهم ولكن منى الإسلام يقوم بحبون الخلاف والله فوق ما يظنون وأما الثانية فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحاق الاسفراينى من

أكابر أصحاب أبي الحسن الأشعري وعلى ذلك المعتزلة إلا ابا الحسن البصرى فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الأشاعرة واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات وأولوا ما جاء فى الآيات أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لأن ما فى قصة مريم وأصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الأنبياء عليه الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلا قليلا وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز فصار البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى تناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أى ولى كان ولا يكون بإنكاره هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم اللهم إلا ان يكون مما صح فى السنة عن الصحابة أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم و لبيدلتهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة وأنا لما سمعنا الهدى أمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وألو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا لنتنتهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أَدْعُوا رَبِّىَ وَلا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّى لَأَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشْدًا قُلْ إِنِّى لَنْ يَجِيرَنِّى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلا بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ

يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلقه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم وخسىء الشيطان الرجيم وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم

www.al-mostafa.com